المورد

مجلة تراثية فصلية محكمة

تصدرها وزارة الثقافة - دار الشؤون الثقافية العامة

المجلد الخامس والثلاثون - العدد الرابع - لسنة ٢٠٠٨

WWW.ATTAWEEL.COM

النَّسِيءُ

بين الجاهلية و الاسلام

الدكتور محمد نايف الدليمي

تعدّ الأزمنة من الأسس المهمة جداً التي تبنى عليها حركة الكون وما يشتمل عليه من كواكب ونجوم، وما خلق الله سبحانه وتعالى مما نعرف أو لا نعرف، فأي حركة في جرم سماوي أو اي شيء ممّا خلق الرحمن عزّ وجلّ يرتبط ارتباطاً مباشراً بالزمان.

وإذا عدنا إلى هذا اللفظ لننظر في دلالاته، فإننا سنجده على وجوه عدة يبدأ من اصغر وحدة زمنية قد تكون تحت الصفر إذا عددنا الصفر أصغر وحدة قياسية له، وإلى الزمان الممتد الذي لا تعرف له نهاية، وكل ذلك ورد في كلام العرب وأشعارهم، فضلاً عن وروده في القرآن الكريم، فمثال الزمن القصير قول ذي الرُّمة يصف قمراً خرج من خلال الخصاص - وهم الغيم - فقال[1]:

أصاب خصاصة فبدا كليلاً
كلا، وانـغل سائره انـغلالا

ومراد الشاعر أن سرعة خروج القمر من خلال الخصاصة كسرعة قولك لا. فكم يستغرق قولك لا من الزمن؟ والشواهد على مثل هذا وغيره من تجزئة الأزمنة كثيرة جداً، ولكل جزء من أجزائه مفردة تدل على طوله أو قصره أو امتداده أو ما إلى ذلك[2].

ومن جانب آخر فإن لفظة زمان لم ترد في القرآن الكريم، وإنما ورد ما يقرب من سبعين لفظة تتحدث عن اجزائه، ولكل مفردة دلالتها التي تعطي معنى يختلف عن معنى المفردة الأخرى[3]. والزمان في القرآن الكريم نوعان، ظاهر تحدده المفردة كالحين والدهر والسنة والعام وغير ذلك، ومخفي يظهر من سياق الآية القرآنية الجليلة كقوله تعالى: (قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ)[4]. فهذان زمانان مخفيان أحدهما أقصر من الآخر يظهران من خلال السياق، والنصوص القرآنية الجليلة على الزمن المخفي كثيرة.

وكذلك حركات الكواكب والنجوم كلها ترتبط بزمن، سواء على صعيد الطلوع أو السقوط، ومن بينها منازل القمر التي عليها اعتماد العرب في حالتي طلوعها وسقوطها، فحياتهم ومعاشهم وتحركاتهم كلها تعتمد على وقت طلوع هذه المنازل وسقوطها، فطلوع أية منزلة من منازل القمر وسقوطها عندهم نوء، ترتبط حياتهم به، ولذلك قالوا: لابُدّ لطلوع كل منزلة أو سقوطها من أن يكون معها حرّ، أو برد، أو مطر، أو ريح، أو سحاب أو غير ذلك. وحسابات العرب كلها وفي كل الأوقات تعتمد على هذا، وأن تغير الأزمنة والفصول الذي تقوم عليه حياتهم ومعاشهم وتجاراتهم وكل أشكال تعاملهم تعتمد عليه، ومن هنا حصل النسيء على وفق ما سنبينه، فما النسيء؟.

تقول المعجمات العربية: نسأ الشيء ينسؤه نسأً وانسأه، أخّره، والاسم النسيئة والنسيء، ونسأ الله في أجله، وانسأ أجله: أخّره. وانسأه الدين والبيع: أخّره به، أي جعله لا مؤخراً، كأنه جعله له بأخرة واسم ذلك الدين النسيئة. وفي الحديث الشريف: ((إنما الرِّبا في النسيئة))[5] وهي البيع إلى أجل معلوم، يريد أن بيع الرّبويات بالتأخير من غير تقابض هو الرِّبا، وإن كان بغير زيادة، وهو مذهب ابن عباس رضي الله عنه، فإنه كان يرى بيع الرّبويات متفاضلة مع التقابض جائز، وأن الربا مخصوص بالنسيئة[6].

والنسيء: شهر كانت العرب تؤخره في الجاهلية، وذلك أن العرب كانوا إذا صدروا عن منى في موسم الحج، يقوم رجل منهم من كنانة فيقول: أنا الذي لا أعاب ولا أجاب، ولا يرد لي قضاء، فيقولون، صدقت انسئنا شهراً، أي أخر عنا حرمة المحرم، واجعلها في صفر، وأحل المحرم، لأنهم كانوا يكرهون أن يتوالى عليهم ثلاثة أشهر حرم لا يغيرون فيها، لأن معاشهم كان من الغارة، فيحل لهم المحرم، ويؤخره إلى صفر، فذلك الإنساء[7].

والشهور نوعان، شمسية وقمرية، والشهور الشمسية لا

WWW.ALHAWEEL.COM

يعتد بها العرب، ولا يحسبون لها حسابا، لأنها ثوابت، لا تتغير بتغير الأزمنة، وليس فيها أشهر حرم، على خلاف الشهور القمرية التي تقوم حساباتهم عليها، والشهور القمرية غير ثابتة، فهي تتغير بتغير الأزمنة، فأي شهر من شهور القمر يدور على الفصول الأربعة، ولا يقابله شهر من الشهور الشمسية، وفي الشهور القمرية الأشهر الحرم، وإن كان عدد شهورها يتطابق مع الشهور الشمسية.

والشهور إما طبيعي وإما اصطلاحي. فالطبيعي هو عود القمر من الشمس إلى بعده الأول تحتها في جهة واحدة من جهتي المشرق والمغرب، وأشكال النور في جرم القمر تكون بحسب أبعاده عن الشمس، وقد جرت العادة منها بالهلال، لأنه كالمبدأ للأشكال، ومن المبدأ إلى مثله تسعة وعشرون يوماً ونصف يوم وزيادة عليه يسيرة. ولكن لما لم يمكن استعمال نصف اليوم، عدوا جملة الشهرين تسعة وخمسين يوما، أحدهما تام ثلاثون يوما والآخر ناقص من تسعة وعشرون يوما، وذلك بحسب مسير النيرين الأوسط... والاصطلاحي: هو الجزء من اثني عشر جزءاً من السنة الطبيعية أو ما قاربها[18].

إن الشهور الشمسية كما ذكرنا لا يعتبر بها العرب، وكل حساباتهم، وتعاملهم، وتجاراتهم، وبيوعهم، ونتاج نعمهم وحيواناتهم، وأحوالهم الشخصية والاجتماعية، وعدة نسائهم، وما إلى ذلك من كل أشكال التعامل يعتمد على الشهر القمري القمري، وحلول القمر بالمنزلة يحدد الشهر الذي هم فيه، وعليه يقوم حسابهم، وفي التنزيل العزيز: (ويسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج)[19].

ومنازل القمر كما هو معروف ثمان وعشرون منزلة، ينزل القمر كل يوم بمنزلة منها، ثم يغادرها إلى التي تليها، ثم يستتر في آخرها، وفي استستراره أيضا يكون حالاً في منزلة، وذلك قوله تعالى: (والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم)[20]. وقول المصطفى صلى الله عليه وسلم في هلال شهر رمضان: ((إذا غم عليكم فاقدروا له))[21] أي اقدروا له المنزلة التي هو فيها.

والذي تجدر الإشارة إليه هاهنا أن الأمم الأخرى من غير العرب لا تتعامل مع الشهور القمرية عدا اليهود والهنود، فاليهود يجعلون السنة ثلاثة عشر شهراً، والشهر الزائد يسمونه عبورا، فيجتمع عندهم آذاران على ما سنوضحه. والهنود يجعلون أول شهر من السنة خمسة وثلاثين يوماً، وبقية الشهور ثلاثين يوماً، فتكون مجموع أيام السنة (٣٦٥) يوماً متوافقاً مع السنة الشمسية، لأن منازل القمر عندهم سبع وعشرون منزلة وليس ثمانيا وعشرين كما عند العرب، والمتعاملون مع السنين الشمسية لهم كبائس أيضا يوضحها الجدول المرافق في نهاية البحث.

وإذا رجعنا إلى طبيعة حياة العربي وبيئته التي يعيش فيها، وجدناها بيئة صعبة صلبة قاسية جافة، فرضت عليه أنماطاً من التعامل، نلمح فيه شيئا من الجفوة والغلظة، وفي كثير من الأحيان الصلابة، وإن كان تعامله العاطفي رقيقاً، وهذه البيئة فرضت عليه أن يكون قويا وشجاعاً، وصاحب نخوة وحمية وكرم، وصاحب سيف ورمح وفرس، وصاحب غزو وقتال، ومآثر كثيرة وأيام تذكر، فهو لا يبيت على ضيم، ولا يقبل بالذلة والهوان، وكبرياؤه وأنفته وعزة نفسه وإباؤه تجعله يحتاط لكل أمر، لا يرهب حاكما ولا متسلطاً، صريح الكلام، صادق في تعامله، جريء في الرد على خصمه، صاحب أندية ومقامات حسان تزخر بها كتب الأدب، وشواهدها كثيرة جداً، فذو الأصبع العدواني أحد شعراء وحكماء العصر الجاهلي يقول من قصيدة يخاطب بها ابن عمه وقد وقع بينهم احتراب[22]:

لاه ابن عمك لا أفضلت في حسب
عني، ولا أنت دياني فتخزوني
ولا تقوت عيالي يوم مسغبة
ولا بنفسك في العزاء تكفيني
إني أبي أبي ذو محافظة
وابن أبي أبي من أبيين
لا يخرج القسر مني ذون مغضبة
ولا ألين لمن لا يبتغي ليني
عف ندود إذا ما خفت من بلد
هونا فلست بوقاف على الهون
ولله لو كرهت كفي مصاحبتي
لقلت إذ كرهت كفي لها بيني
ثم انثنيت على الأخرى فقلت لها
إن تسعديني وإلا مثلها كوني

إذن هذه الطبيعة الجافة القاسية فرضت على العربي أنماطاً من السلوك، وقد ظن أن هذا السلوك صحيح، وأنه ارتضاه، وعده منهجاً وطريقاً سليما ينبغي أن تسير عليه حياته، ومن هذا السلوك شن الغارات على القبائل أو المحاضر القريبة منه، والغزو والقتال، لأغراض السلب والنهب، وكأنه قانون سنه لنفسه، وعرف سائد، وهذا النمط من السلوك كان يتوقف في أشهر معلومة عندهم، فتضع الحروب أوزارها بين القبائل كافة فترة من الزمن محددة بالشهور، ثم تستأنف الغارات بعد انتهاء هذه الأشهر. فأي الأشهر هي الحرم عندهم؟

إن الناظر في تسميات الشهور القمرية، وما تعطيه من دلالة يجدها تدلل على أنها كانت ثوابت كالأشهر الشمسية، ولذلك ورد أن العرب كان لها كبائس في شهورها القمرية، لئلا تتغير أحوال فصول سنتهم، فقد نقل المرزوقي أنه كان شتاؤهم أبداً في جمادى الأولى وجمادى الآخرة، لانجماد الماء في هذين الشهرين، ولذلك سموهما بهذا الاسم، ويكون صيفهم أبداً في شهر رمضان وشوال، وسموا رمضان بهذا الاسم لشدة الحر فيه، إذ هو من الرمضاء، أي شدة وقع الشمس على الأرض، ووجدوا أيام السنة القمرية ثلاث مئة وأربعة وخمسين يوماً، وينقص عن أيام السنة الشمسية نحو أحد عشر يوماً، وأحبوا أن تكون فصول سنتهم على حال واحدة لا تتغير، فكانوا يكبسون في كل ثلاث سنين شهراً، يجعلون سنتهم ثلاثة عشر شهراً، ويسمونها النسيء، إلى أن

بعث محمد صلى الله عليه وسلم، وانزل الله تعالى هذه الآية: (إنما النسيء زيادة في الكفر)، فلم يكبس بعد ذلك، فصار شهر رمضان يتقدم في كل سنة نحو أحد عشر يوماً، ويدور على جميع فصول السنة في نحو ثلاث وثلاثين سنة، ولا يلزم نظاماً واحداً.

والذي يبدو أن هذا الكبس أخذه العرب عن اليهود، فقد ذكر أبو الريحان البيروني أن اليهود أمروا في التوراة باستعمال الشهور والسنين الطبيعيتين معاً، فاضطروا إلى كبس السنة بالشهر المجتمع من فضل ما بين سنتي القمر. وسموا تلك السنة عبوراً، ومعناه بالعبرية مشتق من الحبلى، لأنهم شبهوا الشهر الزائد الثالث عشر في السنة بحمل المرأة الزائد في بطنها، وبزيادة هذا الشهر تعود السنة إلى موضعها بعد ان تقدمت، وقد كان اليهود قد جاوروا العرب في يثرب، مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، فأرادت العرب أن يكون حجهم في أخصب وقت في السنة واسهلها، للتردد في التجارة، ولا يزول عن مكانه، فتعلموا الكبس من اليهود... وجعلوا ذلك إلى نفر يسمون القلامسة، توارثوا ذلك عن أسلافهم... لأنهم إذا ذكر المحرم صار الأول محللاً والثاني محرماً، إلى أن ابطل الاسلام ذلك في سنة حجة الوداع، وهي سنة تسع للهجرة، وكان من استعمل شهور القمر وسني الشمس معاً فلا بدّ له من ذلك.

والأشهر الحرم في الجاهلية تختلف عما هي عليه في الاسلام، فهي في الجاهلية تبدأ في العشرين من ذي الحجة، ثم المحرم، ثم صفر، وربيع الأول، وعشر من ربيع الآخر، ذكر ذلك ابو عبيدة معمر بن المثنى. وقد لا أرى هذا صحيحاً، وان الأشهر الحرم في الجاهلية هي التي عليها في الاسلام، وهي ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب، فصفر لم يكن عندهم من الأشهر الحرم بدليل أن النسيء كان دفع حرمة المحرم إلى صفر، ومن صفر إلى ربيع الأول، ومن ثم إلى ربيع الآخر وهكذا، ودليل أخر أنهم كانوا يعظمون شهر رجب، ويسمونه منصل الأسنة ومنصل الآل، وشهر الله الأصم، لانهم كانوا ينزعون الأسنة من الحراب والرماح، توطيناً للنفوس على الكف عن المحظور فيه في مذهبهم، فلا يسمع فيه تداعي القبائل ولا قعقعة السلاح.

أما في الاسلام، فإن الأشهر الحرم هي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان.

فقد روى ثعلب عن ابن الأعرابي قال: سألت أعرابياً فصيحاً فقلت ما الأشهر الحرم؟ فقال: ثلاثة سرد، وواحد فرد، قال ثعلب: فالسرد المتتابعة، وهي ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، والفرد رجب، وهذا قول ابن عباس أيضاً، وعلى هذا الرأي تكون الأشهر الحرم من سنتين، وليس من سنة واحدة، لأنه بدأها بذي القعدة، وبعده ذو الحجة، وهو آخر السنة القمرية، وقال غير ابن عباس: هي من سنة واحدة، فجعل المحرم أولها، وثانيها رجب، والثالث ذا القعدة، والرابع ذا الحجة، واحتج بقوله تعالى: (منها أربعة حرم)،

يعني من الاثني عشر شهراً، وهي من سنة واحدة، قال ثعلب، والاختيار عندي قول ابن عباس، وهو كلام العرب، وان كان لفظها من سنتين، فهي تعود إلى الاثني عشر شهراً، إلى سنة واحدة. وهذا هو الصواب لمطابقته حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم في خطبة حجة الوداع، وقوله: ثلاثة متوالية، على ما سنذكره.

وثمة رأي اخر يقول: ان الأربعة الحرم هي التي اجلها رسول الله صلى الله عليه وسلم للمشركين من قوله تعالى: (فسيحوا في الأرض اربعة اشهر) وهي شوال، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ثم قال: (فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين) ثم قال اصحاب هذا الرأي: ان الأربعة التي جعلت حلاً من عشر ذي الحجة إلى عشر من ربيع الآخر، وجعلها حرماً.

والذي عليه الدين الاسلامي الحنيف في الأشهر الحرم هو ما ذكرنا أولاً، ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، وهي المتوالية، ورجب مضر الذي بين جمادى الآخرة وشعبان.

فالنسيء إذا هو تأخير شهر محرم وجعله محللاً إلى الشهر الذي يليه، وعادة يكون ذلك بين المحرم وصفر، فيكون المحرم محللاً، وصفر محرماً، ثم تقتضي الحاجة تأخير حرمة صفر إلى ربيع الأول، ثم إلى ربيع الآخر، فتدور الحرمة على الأشهر، فتضطرب الشهور، وتنتقل بين السنين، ولا يكون ذلك إلا في موسم الحج عند اجتماع القبائل في الموسم في ذي الحجة، وذو الحجة اخر الشهور القمرية ونهاية سنة، والمحرم ابتداء السنة القمرية.

ذكرنا فيما سبق أن العرب أخذوا النسيء عن اليهود لمجاورتهم إياهم، وكذلك عن الفرس على ما يبدو لمجاورتهم إياهم، فالفرس قسموا أيام السنة الشمسية... وجعلوا أيام كل شهر ثلاثين يوماً، وزادوا في آخر آبان، وهو آذار، خمسة أيام سموها اللواحق والمسترقة، وسموها الكبيسة، وانما زادوا ذلك لتتم لهم سنة الشمس، وكذلك كبستها الروم، وكل الأمم وقتذاك، ولا يزال الكبس قائماً إلى وقتنا هذا.

بيد أن العرب لم يفعلوا ذلك ليوافقوا سنة الشمس، وإنما فعلوا ذلك اقتضاء مصلحة، وضرورة حتم، فقد أملى عليهم ظرفهم المعاش، وطبيعة حياتهم التي يحيونها في هذه الأرضين والأجواء الصعبة حالات من التعامل التي ظنوا أنها تتوافق ومصالحهم، لأنهم لم يكن لديهم تشريع منزل كما لليهود والنصارى، وإنما كانوا عبدة أصنام وأوثان، وإن كنا لا نعدم وجود أحناف وحكماء ذوي عقليات نيرة متفتحة، وذوي خبرة طويلة، وتجربة ممتدة، حذرت من مغبة الظلم والجور والتعدي، واجتناب الاحتراب والاقتتال، والعيش بطمأنينة وسلام، وأن الجانب الانساني في طبيعة حياتهم كان في الأغلب الأعم هو الذي يطغى على الجانب الآخر، وأن السفه والطيش من الحالات التي لا يخلو منها أي مجتمع.

والضرورة تبيح المحظور، ومن هنا جاء النسيء، فهم إذا اضطروا إلى أمر يقتضي النسيء كأن يتفق حرب

وداعية خطب فوية، أو حالة من الحالات التي تستوجب إحلال المحرّم طلبوه، إلا أن ذلك الطلب لا يكون إلا في موسم الحج، وعلى رؤوس الأشهاد، فينصرفون عن الحج وقد اندفع المحرّم إلى صفر، فصار التحريم فيه، لأن ثلاثة أشهر حُرُم متوالية عليهم زمن طويل، ثم اندفع صفر في موسم آخر إلى ربيع الأول، فصار التحريم فيه، ثم إلى ربيع الآخر، وهكذا، كلما دعتهم الحاجة إلى ذلك، حتى دار النسيء على الشهور كلها واختلطت.

والنسيء فعل مختص لا يقوم به أي أحد من الناس، فالنساة من كنانة، وبنو فقيم منهم بخاصة. وأول من نسأ الشهور على ما تروي الأخبار نعيم بن ثعلبة من كنانة. وكان رئيس الموسم في الجاهلية، فيقوم إذا أرادوا الصدور عن منى فيقول: أنا الذي لا أعاب ولا أجاب، ولا يرد لي قضاء، فيقولون: صدقت، أنسئنا شهراً، يريدون، أخر عنا حرمة المحرّم، واجعلها في صفر، فيفعله. إلا أن النساة هؤلاء كانوا يستثنون من قبائل العرب، حيين هما طيئ وخثعم وينسئونهما المحلين، لأنهما كانا يستحلان الشهور[26].

ويطلق على هؤلاء النسأة من كنانة القلامسة، والقلمس، الرجل الخير المعطاء، والسيد العظيم، والرجل الداهية المنكر البعيد الغور، كما تقول المعجمات العربية[27]. وكان آخر من نسأ الشهور على ما تروي الأخبار، القلمس، جنادة بن عوف الكناني، أبو ثمامة، وكان يقف عند جمرة العقبة ويقول:

اللهم إني ناسيء الشهور، وواضعها مواضعها، ولا أعاب، ولا أجاب، اللهم إني أحللت أحد الصفرين، وحرمت صفر المؤخر، وكذلك في الرجبين يعني رجبا وشعبان، انفروا على اسم الله[28].

ثم جاء الاسلام، وبعث النبي محمد صلى الله عليه وسلم، والشهور مضطربة جراء النسيء هذا، وظلت الحال على ما هي إلى ما بعد غزوة تبوك، ونزول سورة التوبة، إلا أنه لم يحصل نسيء عند العرب منذ بعث النبي صلى الله عليه وسلم، وقد يكون واحداً من الأسباب انشغال العرب بهذا الأمر الخطير الكبير الذي شغلهم عن التفكير بأي شيء سواه، فأنساهم الكثير من اعتقاداتهم، فلم يكن يشغلهم إلا محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به من الدين الاسلامي الحنيف.

ومنذ بدء الدعوة إلى الاسلام، حتى السنة التاسعة من هجرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، لم يرد خبر ان النبي صلى الله عليه وسلم، تحدث عن النسيء وتحريمه، أو قال فيه شيئا، وظل حال الشهور على ما هو، إلى أن حج رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع، فأبطله في خطبته على ما سأبينه.

روي عن مجاهد أنه قال: كان العرب في الجاهلية يحجون عامين في ذي القعدة، وعامين في ذي الحجة، فلما كانت السنة التي حج فيها أبو بكر رضي الله عنه، كان الحج في السنة الثانية من ذي القعدة[29]، وهي حجة قراءة براءة، قرأها عليّ كرّم الله وجهه على الناس[30].

إذن حج أبو بكر رضي الله عنه بالناس في ذي القعدة، بعد غزوة تبوك التي وقعت في رجب من سنة تسع للهجرة، ولما تنزل سورة براءة بعد، فتوجه أبو بكر الصديق رضي الله عنه بالمسلمين إلى مكة بأمرٍ من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعد أن قطع مسافة من الطريق نزلت سورة براءة، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى أبي بكر الصديق ومن معه ليقرأ عليهم صدر هذه السورة وقال له: ((أذن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى، أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد، فهو له إلى مدته، فاندفع علي رضي الله عنه إلى مكة، وأدرك أبا بكر بالطريق، وسارا معاً، وتم حج تلك السنة، بعد أن بلغ علي رضي الله عنه الناس بمقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقرأ عليهم صدر سورة براءة[31].

من خلال هذا نجد أنه إلى سنة تسع للهجرة والمشركون يحجون البيت وهم قائمون على منازلهم من الحج التي كانوا عليها في الجاهلية، والمسلمون على مناسكهم المشرعة لهم، ووقفة تأمل في هذا كله يظهر لنا:

١. أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يحج بالناس منذ بعث إلى أن قبض إلا حجة الوداع، وأنه صلى الله عليه وسلم كان يبعث من صحابته الكرام من يرأس الناس في موسم الحج، ففي السنة الثامنة من الهجرة بعد فتح مكة بعث صلى الله عليه وسلم عتاب بن أسيد أميراً على الحج، وفي السنة التاسعة للهجرة بعث أبا بكر الصديق أميراً على الحج.

٢. إن موسم الحج لم يكن وقفاً على المسلمين حسب، وإنما كان العرب من غيرهم يحجون في الوقت نفسه.

٣. إن النسيء ظل قائماً، ولم ينزل فيه شيء من التحليل أو التحريم منذ بعث صلى الله عليه وسلم، وإلى سنة تسع للهجرة، وبالتحديد بعد عودته صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك، وأن هذه المدة طويلة استغرقت ما يزيد عن عشرين سنة.

٤. لم أجد فيما استشرت من المراجع أن نسيئا حصل منذ البعثة النبوية الشريفة، إلى أن أبطله الله سبحانه وتعالى.

وبعد هذه الأحداث المتوالية، والتداعيات الكثيرة، والبرمجة الدقيقة، والصمت الطويل على أمر خطأ فيه لعب الزمن واختلاف الشهور عن جهل مرتبط بمصلحة دنيوية، لم يحسبوا فيها حساباً لتغير الأزمان واضطراب الشهور والسنين تجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم للحج لخمس ليال بقين من ذي القعدة سنة عشر للهجرة.

ولسنا هنا بصدد تفاصيل مسيرته صلى الله عليه وسلم، أو تعريف الناس بالمناسك، أو العمرة التي اقترنت بالحج، وما إلى ذلك، وإنما الذي يهمنا في هذا البحث وقوفه صلى الله عليه وسلم بعرفة، وخطبته بالناس، ومن ضمن هذه الخطبة كلمة صححت مسار الزمن، بإبطال النسيء وتحريمه، إذ

قبل أن يطلق كلمته هذه قرأ قوله تعالى:

(إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدي القوم الكافرين)[٢٩]، ثم قال:

((وأن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض)). وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم، ثلاثة متوالية، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان[٣٠].

إن هذه الخطبة من المتواتر، وقد شهدها وسمعها جمع غفير من الناس، ومن سياق النص الجليل نرى أن العمل بالنسيء زيادة في كفر الكافر، وضلالة عن الطريق القويم الذي انبنى ناموس الكون عليه، وإن تحريم المحلل وتحليل المحرم مُواطأة، أي موافقة، يرفضها الله سبحانه وتعالى، ويرفضها خلق الكون، وإنما كانوا يفعلون ذلك، فيحلون الشهر الحرام في عام، ويحلونه في عام، ويؤخرون الذي جعلوه محرماً، ويدفعونه إلى شهر آخر، فاختلفت الشهور، ودخل بعضها في بعض، ولم يعرف يومئذ أيها هو شهر كذا بالتحديد.

ومن جانب آخر فإن العرب كما ذكرنا يعرفون منازل القمر معرفتهم أبناءهم وأبناءهم، ويعرفون عدادها، وأن القمر ينزل كل يوم في منزلة منها، ثم يفارقها إلى التي تليها في اليوم الآخر، وحسابـاتهم في أعمالهم اليومية، وعاداتهم الاجتماعية، وأحوالهم الشخصية تعتمد على القمر من مهله إلى استسراره، إلا أن الشهور بالنسيء اختلفت، ولا بد من رجعة تصحيح للأزمنة: وهذا التصحيح لا يقدر بشر عليه، وإنما يصححه الموجد له، وهو الخالق سبحانه، فهو وحده الذي يعرف متى خلق الأزمنة بدقائقها وجزئياتها، ولذلك لم يتحدث به النبي صلى الله عليه وسلم طوال عشرين سنة أو تزيد من البعثة النبوية الشريفة، لأنه لا يعرفه أولاً، ولا يجوز فيه الاجتهاد ثانياً، ولا يقسموم على الحدس والتخمين والتقدير، ولابد أن ينزل في تعديل الشهور وتصحيحها قرآن، وهذا الذي حصل.

إن نزول آية النسيء لم يكن تصحيحاً، وإنما هو إبطال وتحريم، وإن تصحيح الزمان كان في يوم عرفة في التاسع من ذي الحجة من سنة عشر للهجرة في خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

إن التاسع من ذي الحجة من سنة عشر للهجرة لم يكن يوماً اعتيادياً من أيام الله سبحانه وتعالى، فوقوف رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك اليوم في عرفة، هو اليوم الذي عاد الزمان فيه إلى الخلق الأول للسماوات والأرض، والذي ورد في خطبته صلى الله عليه وسلم: ((وأن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض)).

إن هذه المقولة من رسول الله النبي الأمي صلى الله عليه وسلم معجزة نبي كبيرة جداً، وحدث عظيم في تصحيح زمان لا يقدر عليه أي أحد، وأن كلمته هذه لم تكن من عنده، ولم تأت اعتباطاً لأنه أولاً لا يعرف القراءة والحساب وثانياً لم يقعد ليحسب السنين، وإنما هي كلمة وحي من عارف بما خلق، وكيف خلق وقدر، ومتى خلق، وأين، ولا يخفى على الله شيء في الأرض ولا في السماء، فلو تأخر يوماً عنه لم يحصل تصحيح، ولو تقدم يوماً لم يحصل تصحيح، ولظل النسيء قائماً، ولظلت الشهور مضطربة، لأن استدارة الزمن حساب على حركة القمر ونزوله بالمنازل، وهذه الحركة بدأت من أول خلق السماوات والأرض وهو وقت بعيد جداً قدره الجيولوجيون بأربعة مليارات ونصف المليار، فأنى لأحد هذه الحسبة!؟

ومن جانب آخر فإن خلق السماوات والأرض من الأمور العظام التي لم يشهد عليه الله سبحانه وتعالى أحداً من خلقه: (ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض)[٣١] وهذا الحدث العظيم لابد أن يرافقه حدث عظيم على الأرض يرتبط به، فكان الحج إلى بيت الله الحرام هو التجمع الاسلامي الكبير وختام كل عام قمري وهو الإشهاد على ما لم يروا من الخلق العظيم للسماوات والأرض، ولذلك فقد سن الصوم في يوم عرفة لجلالة هذا اليوم وقدره عند الله سبحانه وتعالى، وقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: ((كهيئته يوم خلق السماوات والأرض)) يستشف منه أن الله سبحانه وتعالى بدأ خلق السماوات والأرض في الرابع من ذي الحجة قبل (٤٥) مليار سنة، وانتهى من خلقها وقدر فيها أقواتها في ستة أيام سواء للسائلين في التاسع من ذي الحجة، وهو يوم عرفة، ولذلك وجدنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أشهد الناس على التبليغ، فسأل الناس: أي يوم هذا؟ قالوا: يوم حرام، قال: أي شهر هذا؟ قالوا: شهر حرام، قال: أي بلد هذا؟ قالوا: بلد حرام، فقال: كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ولم يكتف بذلك، بل قال: ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم، قال: اللهم فاشهد. كأنه خشي أن يغير الناس بعده.

ومن جانب آخر فإن الناظر في سورة التوبة يجد أن الآية التي تتحدث عن عداد الشهور هي الآية السادسة والثلاثون، وهي تحمل الرقمين (٦و٣) ومجموع الرقمين هو (٩)، وأن آية النسيء في السورة هي الآية السابعة والثلاثين، وهي تحمل الرقمين (٧و٣) ومجموع الرقمين (١٠)، وقد خلص البحث في نهايته إلى أن استدارة الزمان من خلال خطبة حجة الوداع كانت في التاسع من ذي الحجة سنة عشر للهجرة، وأن الله سبحانه وتعالى قد انتهى من خلق السماوات والأرض في التاسع من ذي الحجة، وقد لا أذهب إلى رأي أؤكد فيه حقيقة أعزز فيها مقولة في نتيجة بحث، فأكون قد حملت نصاً قرآنياً جليلاً مالا يحمله أو يقبله، غير أنني استحث باحثاً واستثيره إلى دراسة هذه المسألة حسابياً، وقد يخلص من خلالها إلى نتيجة تحقق هدفاً، وتثبت إعجازاً، خاصة إذا علمنا أن مجموع الرقمين في الآيتين هو (١٩)، وهذا الرقم عند دارسي القرآن الكريم يرمز الى حالة قد تكون حقيقة ثابتة، أو غير ذلك، والله وحده العالم بأسرار ما خلق، له الحكم والأمر وإليه المصير.

جدول أسماء الشهور والكباس والنسيء عند العرب وغيرهم من الأمم

شهور العرب في الإسلام	محرم ٣٠	صفر ٢٩	ربيع الأول ٣٠	ربيع الثاني ٢٩	جمادى الأولى ٣٠	جمادى الآخرة ٢٩	رجب ٣٠	شعبان ٢٩	رمضان ٣٠	شوال ٢٩	ذو القعدة ٣٠	ذو الحجة ٢٩	٣٥٤	يستفتح برؤية الهلال
شهور العرب في الجاهلية	مؤتمر ٣٠	ناجر ٢٩	خوان ٣٠	وبصان ٢٩	حنين ٣٠	ربى ٢٩	الأصم ٣٠	عاذل ٢٩	ناتق ٣٠	وعل ٢٩	ورنة ٣٠	برك ٢٩	٣٥٤	كانت تبدأ الشهور برؤية الهلال
شهور اليهود العبرية	تشري ٣٠	مرحشوان ٣٠	كسليو ٣٠	طيبث ٢٩	شبط ٣٠	آذار ١٩	نيسن ٣٠	إير	سيون ٣٠	تموز ٢٩	آب ٣٠	أيلول ٢٩	٣٥٤	فيه سنة عبور يتكرر فيها آذار
شهور قبط المصرية	خير ٣٠	نعمتات ٣٠	حريث ٣٠	لشار ٣٠	معراس ٣٠	بجازور ٣٠	أتوح ٣٠	كارشد ٣٠	سهكر ٣٠	توش ٣٠	ماتك ٣٠	ماتكن ٣٠	٣٥٦	شهر التكرير يتم فيه شهر بالحساب
شهور السريانية	تشرين أول ٣١	تشرين ثاني ٣٠	كانون أول ٣١	كانون ثاني ٣١	شباط ٢٨	آذار ٣١	نيسان ٣٠	أيار ٣١	حزيران ٣٠	تموز ٣١	آب ٣١	أيلول ٣٠	٣٦٥	مبدأ الكبيسة فبراريوس وهو شباط
شهور الروم	ينواريوس ٣١	فبراريوس ٢٨	مارطيوس ٣١	أفريليوس ٣٠	مايوس ٣١	يونيوس ٣٠	يوليوس ٣١	أغسطس ٣١	سطمبريوس ٣٠	أكتوبريوس ٣١	نوامبريوس ٣٠	دكمبريوس ٣١	٣٦٥	مبدأ الكبيسة فبراريوس وهو شباط
شهور الفرس	فروردين ماه ٣٠	أرديبهشت ماه ٣٠	خرداد ماه ٣٠	تير ماه ٣٠	مرداد ماه ٣٠	شهريور ماه ٣٠	مهر ماه ٣٠	آبان ماه ٣٥	آذر ماه ٣٠	دي ماه ٣٠	بهمن ماه ٣٠	اسفندارمذ ماه ٣٠	٣٦٥	[illegible]

عن كتاب التفهيم لأوائل صناعة التنجيم للبيروني ص ١٦٦ بتصرف قليل

الهوامش

(١) ديوان ذي الرمة ٢/ ١٥١٨.

(٢) في سبيل المثال ينظر الأزمنة والامكنة ١/ ١٥٢ وما بعدها.

(٣) ينظر ألفاظ الزمان في القرآن الكريم، لأيمن توفيق أطروحة دكتوراة مقدمة إلى كلية الآداب بجامعة الموصل / ٢٠٠٠م.

(٤) الآيتان / ٢٩-٤٠ سورة النمل.

(٥) صحيح مسلم ٢/ ١٢٧٨.

(٦) لسان العرب/ نسأ ١/ ٦١١.

(٧) الأزمنة والأمكنة ١/ ٨٥-٨٦.

(٨) التفهيم لأوائل صناعة التنجيم / ١٦١.

(٩) الآية / ١٨٩ سورة البقرة.

(١٠) الآية / ٣٩ سورة يس.

(١١) صحيح مسلم ٢/ ٧٥٩.

(١٢) ديوان ذي الإصبع العدواني / ٨٩.

(١٣) الآية / ٣٧ سورة التوبة.

(١٤) الأزمنة والأمكنة / ٨٢.

(١٥) نشير هنا إلى أن السنة القمرية (١/٤ و ٣٥٤) وزيادة قليلة، والفرق بين السنة الشمسية والقمرية احد عشر يوما، وقوله سنتي القمر، يعني ٢٢ يوما، يضاف إليها فضلة ما بين السنتين من الأرباع والأجزاء الزائدة وهي سبعة ايام بالتقريب فيتم بذلك شهر. فيطابق السنة الشمسية.

(١٦) التفهيم لأوائل صناعة التنجيم / ١٦٤، والصواب ستة عشر للهجرة على ما سنبنيه.

(١٧) الأزمنة والأمكنة ١/ ٨٦.

(١٨) الآية / ٣٦ سورة التوبة.

(١٩) الأزمنة والأمكنة ١/ ١٩٧.

(٢٠) الآية / ٢ سورة التوبة.

(٢١) الآية / ٥ سورة التوبة.

(٢٢) الأزمنة والأمكنة ١/ ١٩٨.

(٢٣) الأزمنة والأمكنة ١/ ٨٧.

(٢٤) لسان العرب / قلمس ٨/ ٦٥.

(٢٥) تلبيس إبليس/ ٦٤، وتفسير القرطبي ٨/ ١٣٧، جمهرة وصايا العرب ١/ ٤٧.

(٢٦) الذي في السيرة النبوية ٤/ ٩٧٠ أن رسول الله صلى عليه وسلم أقام بعد عودته من تبوك بقية شهر رمضان، وشوالا، وذي القعدة، ثم بعث أبا بكر أميرا على الحج.

(٢٧) الأزمنة والأمكنة ١/ ٨٦.

(٢٨) سيرة النبي ٤/ ٩٧٢.

(٢٩) الآية / ٣٧ سورة التوبة.

(٣٠) للخطبة بتمامها ينظر: البيان والتبيين ٢/ ١٦٥، وسيرة النبي ٤/ ٩٧٢

(٣١) الآية / ٥١ سورة الكهف.

مصادر البحث

*الأزمنة والأمكنة: للمرزوقي، تحقيق د. محمد نايف الدليمي، بيروت، عالم الكتب، ٢٠٠٠م.

**ألفاظ الزمان في القرآن الكريم / دراسة دلالية، لأيمن توفيق الوتاري، أطروحة دكتوراه مقدمة إلى مجلس كلية الآداب، جامعة الموصل، سنة ٢٠٠٠م.

***البيان والتبيين: للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، لجنة التأليف ١٩٦١م.

**التفهيم لأوائل صناعة التنجيم، للبيروني، نشرة رمزي رايت مع ترجمة الى الانكليزية، اكسفورد، ١٣٥٢هـ - ١٩٣٢م.

**تلبيس إبليس: لابن الجوزي، مصر ١٣٦٨هـ.

**الجامع لأحكام القرآن: للقرطبي، بيروت، دار الفكر، بلا سنة طبع.

** جمهرة وصايا العرب: تحقيق محمد نايف الدليمي، بيروت، دار الجيل، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

**ديوان ذي الاصبع العدواني، تحقيق عبد الوهاب العدواني ومحمد نايف الدليمي، الموصل، مطبعة الجمهور، ١٩٧٣م.

**ديوان ذي الرمة: تحقيق عبد القدوس أبو صالح، دمشق، ١٣٩٢هـ ١٩٧٢م.

**سيرة النبي: لابن إسحق، تهذيب ابن هشام، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة المدني، ١٣٨٢هـ - ١٩٦٣م.

**صحيح مسلم: لمسلم بن الحجاج القشيري، دار إحياء التراث العربي.

**لسان العرب: لابن منظور، بولاق، ١٣٠٠هـ - ١٣٠٨هـ.